المقال السادس

عن مذبحة الحرم الإبراهيمى
ما أشبه الليلة بالبارحة !!*

فى عام ١٩٨٥ كتب صحافى إسرائيلى فى مجلة (كوتيرت راشيت) «إن الواقع الإسرائيلى يتقبل أبشع فكرة، إذ إنها تتطور لديه على النحو التالى الفكرة المجرمة تصبح فكرة مجنونة ، والمجنونة تغدو غريبة ، والغريبة خاطئة ، والخاطئة جيدة، بل وممتازة أحياناً » . ويتابع الكاتب تحليله للتيار الفكرى المهيمن صهيونيا بقوله « أثبتت السنوات الأخيرة أن كل فكرة تطرح ـ شريطة أن تكون متعصبة قوميا ـ لا تصبح أمراً واقعا فحسب ، وإنما تقبل رسميا كإجماع قومى . . » وإذا كان ثمة معارضة لغلوها ، يصدر بيان رسمى لاستنكارها ، ولكن مع التاكيد على ضرورة (تفهم الدوافع والحوافز) التى أدت إليها من جانب الإرهاب الفلسطينى» . وفى هذا السياق تشخص القوى الإسرائيلية مذبحة الحرم الإبراهيمى الشريف ، وقد انعكس هذا فى البيانات الرسمية ، وفى تبرير زعيم حزب الليكود لدوافع تلك الجريمة وهناك من يرى أن إبادة

الشعب الفلسطينى « هى مهمة توراتية مقدسة لتطهير أرض اليهود المقدسة »

وفى أكثر من مقال ميزت الاحتلال الصهيونى لأرض فلسطين بأنه أفظع وأبشع صور الاحتلال والطغيان عبر مسيرة التاريخ البشرى منذ أن عرفنا صراع هابيل وقابيل، مرورا بالاستعمار الأوربى بمختلف صوره وأشكاله فى قارات أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية . وكنا نظن أن أقسى وأشنع وسائل الاضطهاد والتعذيب والقهر قد انتهت فصولها مع القضاء على النازية والفاشية . لكن الاحتلال الصهيونى منذ عام ١٩٤٨ حتى اليوم قد جمع كافة أساليب الاحتلال والاغتصاب والتدمير والاضطهاد والتعذيب ليمارسها على الأرض ومع الشعب العربى ، بل أضاف إلى ذلك كله ما استطاع العقل الصهيونى أن يبدعه من أشكال جديدة للجبروت وفى مجالات لم تعرفها البشرية من قبل .

وتأتى المذبحة الجماعية البشعة للركع السجود فى الحرم الإبراهيمى وهم يسبحون ربى العظيم وربى الأعلى فى فجر يوم يستقبلون صيامه . ومع هول الفاجعة وعمق الغضب، تذكرت أن ذلك ليس بمستغرب على حكام إسرائيل وأفكارهم الصهيونية . وحاولت أن استرجع جريمة لاحتلال يقترب من جريمة الحرم الإبراهيمى الذى اقتحمه مطلقو الرصاص فى ذلك المكان المقدس ، فتذكرت دخول عسكر نابليون بخيولهم إلى ساحة الجامع الأزهر عام ١٧٩٨م ، وما رواه الجبرتى عن

تخريبهم وتدنيسهم لذلك الجامع الشريف . وقد حمّت تلك الصورة البشعة من العدوان على المقدسات من كان موجودا بالجامع فى ذلك اليوم حيث يقول الجبرتى (وكل من صادفوه به عرّوه، ومن نيابه أخرجوه) لكنهم لم يطلقوا عليه الرصاص أو «البومبات» لكن الإبداع الصهيونى لم يتردد عن سفك الدماء برصاصه والقوم ركع وسجود تربه العزة .

ودعونا نشير من قبيل استيعاب درس الفاجعة ومغزاها إلى بعض من الصور الاجرامية التى تميز بها الاحتلال الإسرائيلى لأرض فلسطين . أكرر احتلال فلسطين، حيث إن هذه الكلمة قد طمست فى سياق ما يسمى بمسيرة السلام الحالية ، بل إن فريقا كبيرا من صهاينة إسرائيل يزعمون بأنهم حرروا أرض الثورة، وعادوا إلى إرث الأجداد فى يهود والسامره . ومن خلال جبروت الاحتلال ونسج الأساطير قامت إسرائيل متحدية أمة العرب كل من المجتمع والقانون الدولى .

ولقد كان الاستيلاء على الأرض وانتزاعها وتغيير ملكيتها فى صدارة أولويات الاحتلال الإسرائيلى ، وتقدر مساحة الأرض التى استولت عليها فى الضفة الغربية بأكثر من ٥٢ فى المائة من إجمالى مساحتها ، كما انتزعت أكثر من ٣٠ فى المائة من أراضى قطاع غزة . وتذرعت لذلك بمختلف الذرائع العسكرية والأمنية ، بل وزعمت أنها خليفة السلطان العثمانى وللسلطة الأردنية والمصرية على الأرض المحتلة .

وتشير بعض الدرسات إلى أن نسبة سيطرة إسرائيل الحقيقية على

مجمل الأراضى فى الضفة والقطاع تبلغ حوالى ٦٥ فى المائة من تلك الأراضى . ويتضح ذلك إذا ما أضفنا ما ترتب على القوانين العسكرية التى قيدت استخدام الأراضى الفضاء فى المناطق العربية فى ضوء مصالح إسرائيل ، والتى منعت المدن والقرى العربية من التوسع فى أراضيها بحيث تصبح الأراضى الفضاء غير المبنية مناطق لسيطرة قوات الاحتلال ، هذا فضلا عن سياسة نظام التخطيط التى تمكّن لإسرائيل من شق بالطرق المفرطة فى العرض بحيث يتراوح عرض الطرق المحلية ٤٠ مترا والطرق الرئيسية ١٢٠ مترا ، وبحيث يحظر على الفلسطينيين أى بناء على جانبى هذه الطرق على مسافة ٧٠ مترا للطرق المحلية ، ١٥٠ مترا على الطرق الرئيسية ، وذلك ضمانا لأمن إسرائيل .

وقد قرأنا أخيرا عن البدء فى شق طريق رئيسى على مشارف أريحا ، حتى يمكن من خلاله أن يتحكم طريق جربكو (وهى التسمية الإسرائيلية) على أوضاع أريحا فى أعقاب اتفاق المبادىء .

ثم جاءت سياسة المستوطنات أو المستعمرات على الأصح لتقوم على الأرض المنزوعة والمصادرة ولينتقل إليها اليهود من إسرائيل ومن المهاجرين إليها من الخارج ، ويقدر عددها بما لا يقل عن ٢٥٠ مستعمرة منها حوالى ٣٠ فى غزة ، ويبلغ مجموع سكان المستعمرات حاليا حوالى ١١٠ ألاف . وقد أنشئت بعض هذه المستعمرات لتكون مواقع عسكرية ، بيد أنه بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣ التى ألقت الرعب فى قلوب الصهاينة أصبح جميع المستوطنين من حملة السلاح ، وذلك حسبما ورد فى إحدى

الصحف الإسرائيلية من (إن الدرس الذى تعلمناه من حرب يوم كيبور هو أنه ينبغى تسليح كل مستوطنة كما لو كانت قلعة عسكرية) ومع تغير الاحتلال لواقع الأرض والسكان والاوضاع القانونية لكل من القدس الشريف ومرتفعات الجولان السورية ، ودعاوى تحرير أرض الأجداد والعودة إلى أرض التوراة الموعودة (ايرتس إسرائيل) يستمر جيش الاحتلال مع العصابات الصهيونية وأنصارها من سكان المستوطنات فى ارتكاب أفظع صور الاضطهاد للشعب الفلسطينى، ومنها على سبيل المثال . . التنكيل والقتل والاعتقال والسجن والطرد من الديار والنفى ، وبقر بطون الحوامل ودفن الأحياء وكسر الأيدى والرقاب ، وحصار المدن والقرى ،بل إغلاق المناطق العربية كلها لأيام وأسابيع وشهور ، والسيطرة على موارد المياه والكهرباء الصالح المستوطنات ، فضلا عن التمييز العنصرى فى سوق العمل الأسود ، وفى إقفال المدارس والجامعات لآماد طويلة وطمس الهوية الفلسطينية فى المناهج وفى مجالات الثقافة والفنون .

ويكفى أن نذكر أسماء بعض الجماعات والعصابات الصهيونية لنسترجع ما تعرض له الشعب الفلسطينى من تعذيب وانتهاك صارخ فى كافة حقوقه الإنسانية . لا يغيب عن الذاكرة جماعات غوش أونيم ، وحركة كاخ التى تزعمها مائير كاهان وحزب تحيا وغيرهم ممن لطخوا تاريخ البشرية بفظائعهم ومحاولاتهم لاقتلاع العرب من أرضهم والمناداة بنقلهم خارج أرض اسرائيل .

نتذكر كل ذلك ،كما نتذكر ما استطاعت أن توجهه الانتفاضة بحجارتها وأطفالها فى معركتها مع جيش الاحتلال ومستعمراته وعندما أذهلتنا أخيرا فاجعة الحرم الإبراهيمى وضحاياه ، تذكرت على جه الخصوص إشعال النيران فى المسجد الأقصى وقبة الصخرة فى الصبيحة الباكرة من يوم الخميس ٢١/٨/ ١٩٩٦ عندما استيقظ أهل القدس مذعورين على ضرام نيران تنبعث من المسجد الأقصى ثالث الحرمين وأولى القبلتين . وقامت الجماهير العربية تطفىء النار بسواعدها حتى حضرت فرق الإطفاء العربية . وقد لحق بالمسجد وسقوفه ومحاريبه ومنابره وسجاده خسائر فادحة . وإلى جانب هذه الخسائر المادية فى هذا الصراخ المقدس لحقت بالكرامة العربية والقداسة الإسلامية جروح غائرة ما تزال تنزف هوانا وعجزا .

وقد كان الحريق المروع تنفيذا لمحاولات سابقة تهدد بإزالة المسجد الأقصى وقبة الصخرة حتى يمكن بناء هيكل سليمان مكانهما . وقد قيل فى تأخر وصول رجال الحريق من اليهود والتباطؤ فى إخماد النيران خوفهم من الاقتراب من المسجد والتعرض لغضب الجماهير . كذلك قيل أن الذى قام بإشعال الحريق شاب استرالى مجنون ينتمى إلى طائفة مسيحية تعرف باسم كتبيبة الله ، لكن التحقيقات أثبتت أنه يهودى رسما واسما ، فهو (مايكل روهن) كان بكامل قواه العقلية حين صب المواد القابلة للاشتعال على المنبر الأثرى المصنوع من الأبنوس المطعم بالعاج والذى امتدت ألسنة لهبه إلى بقية أرجاء المسجد . وإذا لم يكن من مفر من

الاعتراف بصهيونية جولد شتاين مجرم الخليل ، إلا أن مزاعم جنونه كانت من المبررات التقليدية لسلطات الاحتلال وقتل المصلين فى المسجد الإبراهيمى هو حلقة فى تخريب المقدسات الإسلامية والمسيحية فى أرض فلسطين وتهويدها وصهينتها . ولنذكر مقولة هيرتزل مؤسس الصهيونية (سأدمر كل شىء ليس مقدسا لدى اليهود) محاولة حرق المسجد الأقصى وقبته تطبيق لمقولة بن جوريون (لا معنى لإسرائيل بدون القدس ، ولا معنى للقدس بدون الهيكل) ، ومقولة الحاخام الأكبر ١٩٩٦ (عندما نعيد بناء الهيكل سنتوقف عن البكاء والحداد)

وتذكرت ذلك الحريق مع مذبحة الحرم الإبراهيمى ، مرددا ما أشبه الليلة بالبارحة فى جرائم العنصرية الصهيونية التى أصبحت العقيدة العنصرية الوحيدة فى العالم بعد نهايتها فى جنوب أفريقيا ، وذلك رغم إعلان مبادىء غزة ـ اريحا . ورددت نفس العبارة حين نقلت إلينا الصحف معارضة الولايات المتحدة لقرار فى مجلس الأمن لحماية الفلسطينيين من مذابح الصهاينة فى الأراضى المحتلة ، وهى نفسها التى امتنعت عن الموافقة على قرار يطالب إسرائيل بالالتزام بقرارات الأمم المتحدة وعدم قبول الاستيلاء على الأراضى بالغزو العسكرى ، وذلك فى القرار الذى أصدره مجلس الأمن على أثر حريق المسجد الأقصى برقم ٢٧١ لسنة ١٩٦٩ . واستمعت إلى بيانات الإدانة والشجب من الملوك والرؤساء والنقابات والأحزاب وغيرها من الهيئات الاجتماعية ، وتمنيت الا أردد عبارة ما أشبه الليلة بالبارحة وتذكرت الجبرتى مرة أخرى حين

اعترض على موقف بعض أهل القاهرة من عسكر الفرنسيس ممن كانوا (يقاتلون ويحاربون بصياحهم وجلبتهم) (فيردهم عقلاء القوم إلى اتخاذ أساليب إيجابية فلا يستمعون ولا يرجعون عما هم فيه . . ومن يقرأ ومن يسمع) وأتساءل لو عاد مؤرخنا اليوم ليشهد موقفنا من مذبحة الحرم الإبراهيمى، فهل سيردد مقولة : ما أشبه الليلة بالبارحة !!